

حكم مؤبد

بقلم: سارة أزهرى

ارتفعت أصوات الضجيج وازداد الزحام مع ازدياد حرارة الشمس، ولحظات من الترقب والانتظار تفصلني عن العالم الجديد والحياة الأخرى التي اخترتها بعيداً عن كل ما مضى... النداء الأخير يرتفع لتنبيه المسافرين على البص المتجه إلى ودمدني والذي كنت أحد أفرادهِ.

تحرك **جاد** بقامته الممشوقة ووسامته التي جذبت إليه الانتباه، وهو يرتدي ملابس أنيقة ويغطي عيونه بنظارة سوداء زادت من رقي مظهره الذي لا يتناسب مع جو المكان حوله في الميناء البري. وهمست إحدى الفتيات لجارتها: "الزول ده ما كان أحسن ليهو يسافر بي عربيتو، الجابرو على البهذلة شنو؟" ابتسمت وأنا أستمع لتعليق البنات على مظهري الفخم والتعليقات المتتالية المؤيدة لرأيها، لكنني لم أعِر الأمر اهتماماً، أو هكذا حاولت أن أبدو وكأنني غير مهتم بالأمر... ولكن ابتسامة الرضا التي علت شفتي كانت توقيعاً ببداية نجاح الطريق الجديد الذي كانت بدايته الميناء البري.

انطلقت في رحلتي إلى مدينة ودمدني وتربعت في مقعدي، وبجاري فيه شاب مراهق لم يكمل عامه العشرين بعد، والذي استرخى في كسل على مقعده وهو يومئ لي بالتحية التي رددت عليها بابتسامة مدروسة. مرت الساعة الأولى في صمت لم يقطعه إلا أصوات بكاء بعض الأطفال والمحاولات المستميتة لإسكاتهم التي لم تفلح إلا بعد مرور بعض الوقت.

وساد الهدوء لبعض الوقت إلى أن توقفت الرحلة في إحدى الاستراحات على الطريق، وترجل العديد من المسافرين من البص لقضاء بعض حوائجهم، وبقيت جالساً في مكاني وكذلك الفتى الذي يجلس بجواري والذي أيقظه توقف البص وحركة المسافرين من غفوته... وأخرج من حقيبة اليد التي يحملها جهاز لابتوب وبدأ بنقرات سريعة من أصابعه بالعمل عليه بصورة محترفة استرعت انتباهي، خاصة أنه دخل إلى أحد المواقع الخاصة بواحد من مجموعة شركات ضخمة ومعروفة في السودان... وما هي إلا دقائق معدودة من النقر المستمر انتهت بإغلاق الشاشة وإرجاع اللابتوب إلى مكانه وابتسامة رضا تلوح على وجه الشاب تبين نجاح مقصده.

وبدأ المسافرون بالتوافد إلى داخل البص إيداً بمواصلته للرحلة من جديد، وقررت أن أجد مدخلاً للتعرف إليه بصورة عفوية... وبخفة أسقطت مفاتيحي على الأرض وأحدثت صوتاً استرعت انتباه الشاب الذي بادر بالتقاط سلسلة المفاتيح ومدها إلي... "أفضل مفاتيحك..." ومددت يدي لألتقط المفاتيح من يده... "شكراً يا..." وأسرع الشاب بذكر اسمه... "معاذ***". وبدأت محادثة طويلة بيني وبين الشاب أكدت وجهة نظري حول الشاب بضرورة تعرفي به، وانتهت الرحلة بوصول البص إلى ودمدني وإصرار معاذ على أخذي معه إلى منزل أسرته بعد أن أخبرته أنني غريب على المنطقة وأريد بدأ نشاط تجاري جديد فيها أو عمل مشروع مريح، لكن لا بد لي من دراسة المنطقة على أرض الواقع قبل البدء بالتنفيذ.

وصلنا إلى منزل معاذ في حي أركويت وتهللت أسارير والدته فرحاً لدى رؤية معاذ الذي غاب عنهم لعدة أشهر متواصلة بسبب الدراسة، وأخذت والدته تسترق النظر إلي بنظرات متسائلة... "معاذ يا ولدي لي شنو الغيبة

الطويلة دي... أصلك بتقرا وين ما ياها الساعتين ولا الثلاثة ساعات دي ولا لقيت ليك شي مسكك في البلد ديك؟" "شنو يا حاجة الشوق ده... الحاج لو سمع كلامك ده بغير..." ابتسمت والدة معاذ وهي تنظر إلى أصغر أبنائها بحب... "أبوك يغير أخوك يغير والله أنت فرقتك في البيت أصلو ما بتتسد الزول الوحيد البونسنى أبوك اليوم كلو في السوق ولما يجي ماسك جريدتو لحدي ما ينام وأخوك أصلو من يومو ساكت الكلام بصرفو صرف." ضحك معاذ على شكوى والدته... "أها خلاص أنا جيتك للونسه والبرامج قاءا اعد شهر كامل معاك أسد ليك الفات كلو..." وأحاط كتف والدته بحب وابتسمت وهي تنظر إليه... "هوي يا ولد ما تاكلمي بالكلام ساي كدي النسلم على ضيفك ونكرمو بعد كده نشوف ونستك ما يطلع كلام ساي وتعديها لي كلها مساسقة لي بيت ناس فلانة..." وغمزت له والدته بعينها بكلام يبدو أن معاذ يعرف معناه جيدًا... "حبة ليك وحبة للجماعة يا أمي عشان ما ترهجي مني." رحت الوالدة بقدمي وعرفها معاذ علي أنني أحد معارفه ولم تتسائل الوالدة عني أكثر من ذلك.

دخلنا إلى ديوان الرجال المهياً لاستقبال الضيوف في جزء منفصل من المنزل الكبير حيث كان يجلس والد معاذ الذي استقبلنا باقتضاب ثم واصل في قراءة جريدته كأن كل ما يحدث حوله لا يعنيه في شيء... وخرج معاذ قليلاً ثم عاد ويده أكواب العصير البارد الذي كنت في أمس الحاجة إليه أكثر من أي شيء آخر. وبعد قليل ارتفع صوت والدة معاذ وهي تناديه ليحمل صينية الغداء الشهية... بقيت في منزل معاذ حتى اليوم التالي ثم استأذنت منه للذهاب إلى المنزل الذي قمت باستجاره مسبقاً، وكان في نفس الحي... وقام معاذ بتوصيلي إلى هناك على وعد أن يأتي لزيارتي قريباً ليساعدني فيما أتيت من أجله.

اسمي **جاد**... مسجون سابق... مهنتي النصب والاحتيال... خرجت حديثاً من السجن بعد قضاء سنة بين قضبانه وخرجت أخيراً.

"يا جاد أنت ما قلت لي زولك ح يضرب لينا عشان نمشي نشوف العربية... مالو لي أسه ما سأل فينا؟"

مل **حامد** من طول الانتظار وهو يمني نفسه بالفوز بالسيارة البرادو بسعر جيد، ولكنه مل انتظار المكالمة التي تحدد لنا مكان تواجد السيارة لنذهب لفحصها... كان دوري في العملية أن أقنع حامد وهو أحد تجار السوق المعروفين بشراء السيارة البرادو وعرضها عليه بسعر مغري بحجة أن صاحبها مضطرة لبيعها لظروف سفرها وحاجتها للمال بسرعة... وقمت بالاتفاق مع زميلي **سيف** على أن يقوم هو بالاتصال بنا لنذهب لفحص السيارة التي سيقوم بعرض واحدة جيدة ثم يتم استبدالها عند التسليم... وكانت فكرتي الأساسية أن نأخذ أموال حامد ونهرب دون أن يدري أي شخص بمكاننا...

لكن تأخير محادثة سيف أصابني أنا أيضاً بالقلق فلم يكن من عادة سيف أن يتأخر عن ميعاد يخص عملياتنا المشتركة، وحاولت أن أطمئن حامد على سبب التأخير رغم أنني كنت أكثر منه قلقاً. ولكن ما هي إلا دقائق معدودة وتوقفت سيارة برادو أمام دكان حامد في السوق الذي كنا نجلس أمامه، وترجلت منها فتاة فائقة الجمال، ورغم العباءة السوداء التي كانت ترتديها والطرحه التي كانت بنفس اللون والتي التفت حول رأسها الجميل بدلال سرقت أنظار الجميع في ثواني وتركت حامد يسيل لعابه عليها ومستعد لتنفيذ كل ما تطلبه منه وهو ينظر إليها بنظرات جائعة فهمت هي معناها جيداً... نعم بهرني جمالها لكنني شغلت بالتساؤل عن سيف وعن سبب عدم اتصاله، وما هي إلا ثواني حتى سمعت الجميلة وهي تسأل عني بالاسم... "لو سمحتو يا جماعة بسأل من واحد اسمو..." ونظرت إلى ورقة صغيرة تحملها في كفها... "جاد الحسيني..." توجهت إلي أنظار الجميع عند

سماع اسمي وهو يخرج من بين شفتيها... وأشار أحدهم إلي ببلاهة... "ده جاد البتسالي منو يا عسل..." وجهت الفتاة نظرات غاضبة ومتحدية عند سماع كلمة عسل ثم نظرت بازدياء واضح إلى الرجل الذي حاول مغازلتها على مسامع الجميع... ثم التفت إلي وهي تقول... "سيد جاد لو عندك مكان نقعد نتكلم فيهو بدل لمة الناس حوالينا... وعلى كل حال أنا جايك من طرف سيف..." عند سماعي لاسم سيف فكرت في سؤالها عن سبب عدم حضور سيف لكن سبقتني هي بمد يدها إلي بالتلفون وهي تقول "سيف عايز يكلمك..." "سيف وين أنت لينا ساعتين قاعدين وأنت لا حس ولا خبر..." سمعت صوت سيف المتعب على الطرف الثاني من الخط... "والله يا جاد ما عارف الحصل علي شنو من الصباح الحمي تهرس فيني ولولا **مروة** كانت موجودة ما عارف كنت أسوي شنو." أخذت الجوال وتحركت جانباً حتى لا يسمع أحد حديثي... "ودي منو الرسلتا دي... أوعى تقول لي أختك." وضحك جاد... "لاااا دي مروة ست العربية بس اعمل حسابك هي ما فاهمة حاجة عن الموضوع أنا كل الفهمتمو ليها إنها توريكم العربية وترجع وأنا بتصرف بعد كده... أنا الحركة غالياني... شوف زولك ده آخر كلامو شنو عشان نتم الحكاية... بس اتجرجر ليهو شوية عشان أشد حيلي ونقدر نزوق..." "حاضر يا سيف بجرجرو ليك... خلي زولتك دي تمش وأنا بقوم بالباقي أصلو جيتها دي ح تسهل أمور كثيرة..." وانتهت المحادثة على اتفاق بيني وبين سيف على جعل الموضوع عائناً لفترة حتى يطيب من وعكته ليستطيع الاختفاء لفترة كعادته بعد كل عملية.

بدأ حامد في فحص السيارة أو بالأحرى في فحص صاحبها التي لم يرفع عينه من عليها طول الوقت وهو ينتهز أي فرصة ليحدثها بهدف أو دون هدف... وخيل إلي أنها قد بدأت تتجاوب معه ببعض الابتسامات والنظرات التي تحمل الكثير من المعاني... بعد ذهاب مروة بسيارتها أعلن حامد عن رغبته الأكيدة بشراء السيارة وصاحبة السيارة... وضحكت على تعبيره لكني لم أعلم جديته إلا عندما علمت منه أنه أخذ رقم هاتفها الخاص.

توالت الاتصالات الهاتفية بين حامد ومروة لعدة أيام ويبدو أنه وقع في شراكها، وخرجنا أنا وسيف خارج اللعبة تماماً بعد أن أصبحت مروة الشغل الشاغل لحامد طيلة الأيام التالية... "يا حامد شنو طلعتونا منها... نجيب ليك البيعة لحدي عندك وداير تاكل حقنا..." رد علي حامد في ضيق... "حق شنو يا جاد الأكلتو عليك... أنا لي أسه ما استلمت حاجة والعربية عند سته..." "كيف يعني أنت مش قلت لي خلصت معاها خلاص..." وهز حامد رأسه بالإيجاب "أيوه ومروة استلمت نص المبلغ والباقي عند التسليم وأول ما استلم العربية حقك وحق صاحبك بصلك على داير مليم."

"ي وراي... أسه كانت بتتكلم معاي وورتنني بحكاية القروش... جاد أنا ضامن مروة... وأصلاً هي ما فاهمة حاجة قايلها بيعة عادية..." رددت عليه والشك يملأ قلبي... "طيب هي كده ما خربت علينا... ح نضطر نتم البيعة رسمي وما ح نستفيد حاجة..." "السبب أنا يا جاد لو ما الملا ريا كان الموضوع تم زي ما نحنا عايزين بدون ما ندخل بت الناس بينا..." أحسست من كلام سيف بدفاع خفي عن مروة... يبدو أنها وصلت لقلب سيف أيضاً كما فعلت مع حامد.

الجزء ٠٢

مروة هربت بالمبلغ والسيارة وتركتنا في حيرة... والأدهى والأمر أنها قد أوقعت بي أنا أيضاً... اتصلت علي هاتفياً ورددت عليها في ضيق: "أيوه يا مروة وين أنتي ليك كم يوم من حامد لي سيف ومادايرة تنمي لينا شغلتننا..." "جاءني صوتها الباكي: "جاد الحقني يا جاد..." انفضت من جلستي بعد سماعي لبكائها: "مالك يا مروة في شنو..." "العربية عطلت علي وأنا في براى والشارع فاضي وفي شباب بي عربية حاولو يتهمجو علي..." "وأنتي وين بالضبط؟" أعطتني مروة العنوان وبسرعة ركبت أول سيارة أجرة وجدتها أمامي حتى وصلت إلى المكان الذي كانت تتوقف فيه سيارة مروة... والتي كانت في حالة يرثى لها حتى أنني نسيت كل ما يتعلق بالعمل وأصبح كل همي تهدأتها... وتمكنت من سحب السيارة من مكانها بعد أن بحثنا عن كل الأماكن التي يمكن أن نجد فيها من يصلح السيارة ولم نجد في هذا الوقت المتأخر والحل الوحيد كان سحب السيارة ووضعها أمام منزلي حتى الصباح... واضطرت أن أذهب ومع مروة إلى منزلي حتى أتأكد من إيقاف السيارة أمام منزلي حتى الصباح ثم ذهبت لتوصيل مروة إلى منزلها والتي بدأت تشكي وتترمر... "جاد حامد زولكم ده كرهني كل يوم تلفونات وكل يوم ألقاهو ناظي لي وما عارفة أتصرف معاهو كيف..." "يعني ما أنتي المدها فرصة؟" ردت علي في انزعاج: "أبدأ والله لكن أنت عارف حامد لوح كيف من أول يوم ما خلاني مشيت إلا شال رقم تلفوني... وندمت أنو اديتو ليهو..." كنت ما بين مصدق ومكذب لحديثها عن حامد... لكن معرفتي به جعلتني أصدق إلحاحه الشديد عليها... أوصلتها إلى منزلها ورجعت في وقت متأخر ومع وصولي إلى المنزل سمعت صوت هاتفها وكانت مروة... "شكراً ليك يا جاد على العملو معاي..." وتمتمت أنا في حرج: "على شنو... ما عملنا إلا الواجب..." وكانت محادثة قصيرة جعلت قلبي يدق وأصبحت ضمن القائمة الطويلة لعشاق مروة... أصبحت ألهف لرؤياها ولسماع صوتها... وبدأت بيننا محادثات تتسم بالود لكنني لم أصرح عن مشاعري التي كانت تتزايد وبشدة تجاه مروة... إلى أن أعلن حامد عن رغبته في خطبتها فقد شارف موعد سفرها على الاقتراب.

"مروة بقيت ما قادر أبعد منك وما قادر أسكت أكثر من كده وأنا شايف حامد كل يوم بجيب في سيرتك..." نظرت إلي مروة نظرة خجولة... "أول مرة أسمعك بتتكلم كده... طواالي كلامك شغل في شغل..." أطرقت برأسي إيجاباً... "لازم أتكلم وأقول الفلي قلبي قبل ما زول ثاني يخطفك... لازم تعرفي مشاعري تجاهك وأعرف إذا كنت يعني ليك حاجة ولا لا... ردك ح تتوقف عليه حاجات كتيرة يا مروة..." كنت قد أصبحت لا أطيق نظرات حامد إليها وكلامه عنها وجعلني اقتراب سفرها أحس أنها ستبعد عني إلى آخر الدنيا وربما لا أراها مرة أخرى، جعلتني هذه الفكرة لا أطيق كتمانها لمشاعري أكثر من ذلك... وقررت أن أغير حياتي كلها لو أصبحت مروة لي.

وطلبت أن أقابلها على غير العادة ووافقت هي دون أن تسأل عن السبب، وها هي أمامي تنتظر إلي بأجمل عيون رأيتهما وأنا أنتظر جوابها... "خلينا ما نستعجل يا جاد... ادينا فرصة نعرف بعض أكثر عشان نتأكد من مشاعرك..." حمل حديثها نوعاً من التجاوب الذي رقص له قلبي فرحاً... "المهم أنتي تديني فرصة عشان أثبت ليك صدق مشاعري..." وابتمت مروة وهي تهز رأسها إيجاباً... وكدت أن أطير أنا من الفرح... وأنا لا أدري أنني قد وقعت وقعت في شراكها أنا أيضاً... "يا جاد... شنو نمنا في الخط وينك ما خلصتنا لينا الموضوع مع زولك ده لي أسه... مروة خلاص سفرها قرب وكلها يومين تسلم حامد العربية... أليد ليهو عشان حقنا ما يروح..." أول مرة تطول عملية نقوم بها والسبب مروة، وبعد أن كانت عملية احتيال أصبحت مجرد عملية سمسرة عادية وكدت أن أنسحب منها لولا أنني لم أكن أطيق تعامل مروة المباشر مع حامد وسيف، لذا أجبرت نفسي على إتمام البيع وأنا في قرارة نفسي عزمت أن أتخلى عن نصيبي من السمسرة لصالح مروة... وأن تكون عمولتي من حامد فقط... وتبقي على سفر مروة يومين فقط وتم توقيع عقد البيع النهائي واستلام مروة لبقية المبلغ وكنت أنا من سيسلم السيارة لحامد بعد سفرها، وزاد انزعاجي حينما حاول حامد الانفراد بمروة والحديث معها وكنت غاضباً جداً لكن تركت الموقف يمر رغم أنه لم تعجيني الفرحة الظاهرة على وجه حامد... وخرجنا بعدها إلى أحد المطاعم لقضاء بعض الوقت معاً... "حامد كان بقول ليك في شنو؟" ضحكت مروة...

"بتين ده؟" "لما كنتو واقفين سوا بعيد مننا..." ردت مروة بهدوء... "أبدأ عرض علي الزواج..." أحسست بالدماء ساخنة تتصاعد إلى رأسي الذي كان يغلي من الغضب... "وأنتي قلتي ليهو شنو؟" ابتسمت في دلال وهي تضع كفها الصغير على يدي... "كنتا عايزني أقول ليهو شنو... طبعاً قلت ليهو خيليني أفكر..." وازداد غضبي من ردها وسحبت يدي وأنا أقول... "تفكري في شنو يا مروة والكلام البينا ده كان لعب؟" ضحكت مروة... "حبيبي أنت غيران... معقولة تغير من حامد؟" لم تكن تعجبني لهجتها التي تعبت بمشاعري... "كيف ما أغير وأنتي بتقولي ليهو ح أفكر؟" تغيرت قسما وجهها إلى الجدية... "حبيبي لازم كان أقول ليهو كده وإلا كان ممكن يتراجع ويخرب أي حاجة وأنا ما عندي زمن بعد ده لي مطاولات معاهو... بعدين أنا ما قلت ليهو موافقة كلامي ليهو بحتمل الرفض والإيجاب... وفي كل الأحوال أنا ليك أنت وبس حامد ولا غيرو ما عندي ليهم حاجة." هذأت قليلاً وأنا أسمع كلماتها التي أرضت غروري... إن كان لا يعجبني ما يدور بينها وبين حامد... "حبيبي عن إذك أمشي الحمام وأرجع ليك..." وتحركت مروة ناحية الحمام وعندما اقتربت منه سمعت صوت هاتفها بنغمته التي بت أحفظها عن ظهر قلب.

وتوقفت مروة لترد وقد بدأ على قسماتها الفلق وتراجعت نحو طاولتنا وهي تتحدث في قلق... "حاضر... حاضر... يا ماما بجي عليكم أسه طوالي... أنتو خليك جاهزين وحضري لي معاك غيار ما في زمن عشان أدخل البيت... طيب يا ماما مسافة السكة وأكون معاكم." وأقفلت المكالمة... "خير يا مروة في شنو؟" ردت مروة بصوت حزين... "والله حصلت لي نا وفاة في البلد حبوبتنا ولا لازم أسه نساfer وأمي وأخواتي منتظرين عشان أجي أسوقهم..." وكنت قلقاً عليها وعلى المشوار الذي لم يكن في الحساب... "وح ترجعي بتين أنتي ناسية سفرك ولا ح تأجليه؟" تأوهت مروة في حيرة... "ما في طريقة لي تأجيل مرتبطة هناك بي موعد معين لو فوتو يبقا ما في داعي لي سفري كلو... الوالد الله يرحمو عندو حقوق في شركة كان عليها مشاكل وأنا لازم أمشي أحضر جلسة المحكمة نيابة عن أمي وأخواتي."

"طيب ح تعلمي شنو؟" سألتها في قلق... "ح أضطر أسافر الليلة وبكرا نهاية اليوم أرجع طوالي... ما في حل غير كده..." ووقفت وهي تقول... "يلا لازم أمشي أسه طوالي عشان السكة طويلة ونوصل قبل الحة ما تضلم."

ودعتها وقلبي يمتلأ بالقلق عليها وأخبرتها أنني سأحادثها لأطمئن على سلامة وصولها.

ومرت ليلتي في قلق وخاصة أنها لم ترد على اتصالاتي. ولم يهدأ لي بال حتى هاتفتي هي ورددت عليها بلهفة... "مالك ما بتردي علي... قلقت عليك..." أجابتن بصوت ناعس... "والله من ما وصلنا ما لقيت فرصة لي كلام من المعزين وزحمة الناس... وكل شوية الشبكة تقطع يا دوب أسه بعد الناس نامو حتى قدرت أكلمك..." "النوم طار من عيوني يا مروة خفت يكون حصل ليكم حاجة في السكة..." "لااا حبيبي نحنا كويسين ووصلنا بالسلامة وإن شاء الله بكرة أكون في الخرطوم بس ما تقلق لو لقيت تلفوني مقفول لأنني نسيت أشيل الشاحن وأكيد ح يقفل... لو ما لقيت شاحن ح أحاول أتصل عليك من أي تلفون ثاني ولو ما قدرت... أول ما أرجع بكلمك حتى لو وصلنا الفجر."

مر اليوم الأول ثم الثاني وأنا في انتظار اتصال مروة دون فائدة وهاتفها مغلق... ربما وصلت متأخرة ولم تستطع الاتصال بي... وغداً مساء ميعاد سفرها... هاتفني حامد وهو يسأل عن مروة في قلق واضح وسألني إذا كانت قد عادت من العزاء... وأخبرته أنني لا أعرف فهي لم تعاود الاتصال بي منذ كنا معه... كذبت عليه حتى لا يشك في شيء لكنني كنت غير مطمئن فمن أين علم حامد بأمر العزاء هل هاتفها هو... لما لم تخبرني... وأبعدت الوسواس عن رأسي فربما كان يطمئن على الموعد الذي سيستلم فيه السيارة.

وجاء اليوم الثاني حتى الظهيرة ولا جديد عن مروة... وأصابني القلق فقررت الذهاب إلى منزلها لاستبيان الأمر... وصلت إلى المنزل الذي تسكن فيه ووقفت لفترة وأنا أدق الجرس حيناً وأطرق الباب أحياناً أخرى دون مجيب... حتى توقف أحد المارة الذي مر بي منذ قليل لبعض شأنه ويبدو أنه عاد مرة أخرى.

"السلام عليكم..." "عليكم السلام." بادر الرجل بالسلام ورددت عليه... "لو عايز الزول المسؤول من البيت أمشي لي المغلق الفي طرف الشارع واسأل من علي..." ثم تحرك الرجل دون أن ينتظر ردي وتركني وأنا لا أفهم ماذا يقصد بالضبط لكنني قررت الذهاب إلى المغلق وملاقة المدعو علي.

"لو سمحتو وين علي؟" سألت الصبي الجالس أمام المغلق... "علي مشا صلاة الضهر في الجامع شوية وبجي..." وسألته "طيب ممكن انتظرو؟" ولم يمانع الصبي وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث حتى يرجع علي من الجامع... "جيت أسأل من الجماعة الساكنين في البيت الفي الشارع الوراكم..." "ياتو بيت قصدك؟" سألتني الصبي... "بيت ناس مروة الطيب..." حاول الصبي أن يتذكر الاسم... "ما بعرف واحدة بالاسم ده أنت متأكد أنك في المكان الصحيح يمكن تكون قاصد الحي الوراانا..." فهزرت رأسي نفياً... "لا أنا متأكد لأنو جيت قدام البيت كم مرة بس ما دخلتا... ودقيت الباب ما في زول جاني... وفي واحد من الحلة قال لي لو عاوز تسأل أمشي لي علي في المغلق... هو علي قريب الجماعة ديل ولا شنو؟" وقبل أن يجيبني الصبي ظهر رجل في أوائل الأربعينيات ويبدو أنه علي لأن الصبي نادى عليه من بعيد... "يا عم علي الزول ده راجيك من قبيل..." ووصل علي صافحني بحرارة... "أهلاً أهلاً... اتفضل يا أستاذ..." "شكراً يا عم علي..." "خير أي خدمة أقدمها ليك ياااا..." "أنا جاد اسمي جاد وبسأل من ناس مروة الطيب..." ردد علي الاسم في استغراب... "مروة الطيب... منطقتنا دي ما فيها إلا زول واحد اسمو الطيب وما عندو بنات أولاد بس..." فقرنت سؤالي بوصف البيت وكلام الرجل الذي طلب مني أن أحضر إلى هنا... "ااااا أنت قصدك بيت حسن الإمام." فقلت له... "والله أنا ما بعرف الناس كلهم بعرف بس بتهم مروة... عندها شغلة معانا... عايزين نتمها وما لامين فيها."

وعرفنا أنو عندهم وفاة في البلد. فضحك علي وقال... "أوعى يكون أنت زالااتك من الجماعة العشوهم..." ووقع قلبي عند سماع جملة... "قصدك شنو؟" وسألني علي عن مروة وعن شكلها. وقت بوصفها علي أدق صورة... وهنا قال علي... "إن شاء ما يكون عندك شي عند البيت دي." قلت بقلق... "ليه في شنو؟" ورد علي... "والله يا ولدي البيت البتسأل منو ده بيت حسن الإمام ود عمي وهو مسافر برة وأنا مسؤول من إيجارو... وقبل فترة جات بت وأمها أجرو البيت وأول امبارح البيت جابت لي المفاتيح وقالت هم خلاص مسافرين وأنا صدقتهم وشلت منهم المفتاح على كده... ومن أمس كل شوية زول يسأل عن البيت دي بس بي اسم مختلف."

رجعت منزلي وأنا غير مصدق هل يعقل أن تكون مروة محتالة... لا بد أن هناك سوء تفاهم في الأمر... وهاتفنت سيف على أحد عنده إجابة لسؤالي لكن علمت منه أنه لا يعلم شيء عن مروة وتفاصيلها الشخصية وتوالت اتصالات حامد الذي شك في تأخير مروة عن موعد سفرها... وعلمنا أن تلك المحتالة لعبت بعقولنا وبعواطفنا وأخذت ثمن السيارة وهربت... أنا المحتال الذي خدعت نصف العاصمة تخدعني مروة... وتعالأت أصوات سيارة الشرطة وما هي إلا دقائق حتى سمعت صوت طرقات عنيفة على الباب... وفتحته بسرعة لأفاجأ بالشرطة في بيتي أنا... وعلمت أنها أوقعت بي في شرك لا فرار منه.

لأول مرة أقع في براثن الشرطة... ولأول مرة لم أكن مذنبًا لكن كيف لي أن أثبت براءتي وقد التزمت لحامد بتسليمه السيارة... والسيارة وصاحبها لا أثر لهما... حتى سيف لم يعرف لها طريقًا رغم بحثه المتواصل عنها... وظنت الشرطة أنني شريكها الذي هربت وتركته ليتحمل وحده التبعة... فقد شهد الشهود بوجود السيارة أمام منزلي عدة مرات في ساعات متأخرة من الليل... والمحادثات الهاتفية المستمرة بيننا... كل هذا كان من الممكن أن تتم تبرأتني منه لكن توقيعي على العقد وإقراري بأنني من سيسلم حامد السيارة هو ما رماني في السجن لأكثر من تسعة أشهر فشلت معها كل الوساطات مع حامد لفك أسري... وحاول والدي أن يساعدني لكن عندما اعترفت له بجرائمي السابقة التي لم تعلم عنها الشرطة شيء غضب وقاطعني ولم يعد لزيارتي مرة أخرى... وكان كل نصيبي منه المحامي الذي أوكله لمتابعة قضيتي.

السجن وما أدراك ما السجن... تجربة لن أكررها مرة أخرى مهما حدث... لذا قررت التووووووبة... من أول يوم في السجن رأيت كل أنواع المصائب التي في الدنيا... تعرفت في اليوم الأول على شاب ظريف وضحوك وبعد يومين اكتشفت أنه... بمجرد الصدفة عندما استدعاه أحد المساجين باللفظ الصريح... وقررت ساعتها أن أبتعد عن كل الظرفاء بعد عدة أيام حدث شجار كبير أثناء الإفطار وأصيب فيه رفيق الحلبي بطعنة سكين كادت أن تودي بحياته ومن طعنه شقيقه مجدي الحلبي... نزيلان في السجن منذ عدة أشهر نتيجة اعتداءهما على والديهما وزوجته... أما مروجي المخدرات فقد ظننت أنني إذا رفعت وسادتي لوجدت تحتها أحدهم... كل هذا لم يكن السبب في إصراري على التوبة ولكن السبب الأساسي هو تلك الليلة التي مرض فيها شاب قوي البنية سريره يجاور سريري وعندما أصبح الصباح كان ميتًا... وكنت أنا مرعوبًا... هل سيأتي يوم وأموت وحيدًا في زنزانتني... لااااا لن أعود إلى السجن أبدًا.

مرت الأيام بطيئة وأنا أتجنب المساجين لكن مع مرور الأيام استطعت التأقلم على وحدتي حتى أنقذني منها أحلى خبر... أنه قد تقرر إطلاق سراحي أخيرًا... والسبب اعتراف مروة بأنها هي وحدها من قامت بخداع الجميع بما فيهم أنا... طول الفترة التي قضيتها في السجن كنت أرسم الحوارات والمشاهد التي ستحدث إذا التقيت بمروة مرة أخرى.

رأيتها... جميلة كما كانت... وابتسامة عابثة مرتسمة على وجهها وهي تنظر إلى المحقق. ولم تنظر إلي كأنني لا أعني لها شيء... تمنيت أن أقول كل ما بداخلي لكن انعقد لساني... ربما هو الغضب منها ربما هو الشوق إليها أو ربما هي تلك البسمة العابثة... كل ما فعلته أنني صمت ولم أفعل شيء غير أنني قد أجبت على كل ما طرح علي من أسئلة... وتقرر الإفراج عني وذهبت وتركتها هناك وقلبي معها.

"ما عافي منك يا جاد لو رجعت لي السكة دي تاني..." لم أكن أعلم كم يحبني والدي إلا عندما رأيت دموعه وهو يستقبلني خارج السجن... "توووووبة يا أبوي... توبة من البهدة دي ما بعيدها تاني..." ابتسم والدي... "ما يكون كلام ساي والله ما عافي ليك لو كررتا عملتك دي تاني... مالك الناقصك شنو عشان تمشي في الدرب الكعب... عايز تشغل براك وتبني نفسك... ما عيب لكن العيب السويتو ده." كنت مطرقًا رأسي وأنا أسمع حديث أبي... نعم أنا أصررت أن أنفصل عن تجارة والدي وأبدأ عملاً مستقلاً ولكنني استسهلت المال السريع... لكن أموال الدنيا كلها لا تساوي يوم واحد وأنا في الحبس ولا مشاكله... "حاضر يا أبوي أنا نويت جادي على التوبة وكفاية الشفتو في السجن إلا أكون مجنون لو رجعت ليهو تاني." ومن هنا بدأت فكرتي في الابتعاد عن العاصمة وعن كل من عرفتهم وأن أبدأ حياة جديدة بروح جديدة... وأهم ما فيها الابتعاد عن مروة آلاف الأميال... وكانت رحلتي إلى ود مدني وبداية حياة جديدة وصادقة قوية مع معاذ.

ومن هنا بدأت فكرتي في الابتعاد عن العاصمة وعن كل من عرفتهم وأن أبدأ حياة جديدة بروح جديدة... وأهم ما فيها الابتعاد عن مروة آلاف الأميال... وكانت رحلتي إلى ود مدني وبداية حياة جديدة وصداقة قوية مع معاذ.

"يا جاد الحاجة مستنيك الليلة ولو جيت من غيرك ما بتريحني..." اتصل معاذ على والدته تلفونيا وكعادتها أمرته بأن يحضرني معه على الغداء... "أوامر الحاجة مطاعة وأنا زالتني لي يومين ما لاقيتها... لا لازم أصلاً..." معاذ متعجباً... "نفسى أعرف عملنا ليها شنو أمي دي... زمان ما عندها سيرة غيري... أسه نستني وبقت اليوم كلو جاد جاد..." ضحكت وأنا أربت على كتف معاذ... "ده سر المهنة لو وريتك أكيد ح تسرقو..." وابتسم معاذ... "طيب يلا نمشي بسرعة قبل ما تغير رأيها الليلة عاملة ليها شية جاللة وقالت ناكلها من نارها وأنا ريتي جري خلاص ما قادر أنتظر."

مرت عدة سنوات منذ وصولي مدني وتوثقت علاقتي بمعاذ وأسرته. وبعد أن أنهى دراسته بدأ بالعمل معي... معاذ شخصية عملية وفي نفس الوقت هزلية، مرح ولطيف وخدم، وأول شيء عرفته عنه حبه لجارته هناء التي لا يفارقها إلا قليلاً وقد تمت خطبتهم منذ فترة واقترب موعد الزواج. بدأت التجهيزات لزواج معاذ على قدم وساق وكنت أنا صديق العريس والعروس التي تعرفت عليها وعلى أسرته بحكم علاقتي القوية بمعاذ وستحضر أسرتي من الخرطوم خصيصاً لحضور عقد القران وحفل الزفاف... وكنت أنا سعيداً بكل هذا مع إحساس داخلي بدأ ينتابني... بدأت أحس برغبتني في الاستقرار وتكوين أسرة... لكن لازال شبح مروة في حياتي رغم أنني لم أرها أو أسمع عنها منذ أن خرجت من السجن منذ أكثر من خمس سنوات... وبدأت والدته معاذ في تشجيعي على الزواج وساندتها والدتي التي أصبحت صديقته بعد كل ما حكته لها عن أسرة معاذ ووقفتهم إلى جانبي وارتباط شقيق معاذ بأختي بخطة رسمية على أن يتم الزواج بعد إكمال جوري شقيقي لدراسته الجامعية... وبدأ منزل معاذ ومنزل أهل العروس بالازدحام نتيجة لتوافد المعازيم القادمين من العاصمة لحضور العرس.

تعبق المكان برائحة الصندل المختلطة برائحة الحناء في مزيج غريب وتعالق أصوات البنات بغناء العديل والزين، وسمية خالة معاذ تضع الحناء للعريس في زيه البلدي الأبيض الجميل... والتف حوله عدد من الأصدقاء في انتظار دورهم في الحناء ومعهم امرأتان أصغر سنًا من سمية تقومان بوضع الحناء للبقية... وكنت أنا أنظر بسعادة لكل هذا وأنا أساعد في توزيع المهلبية والمديدة واللقيمات على الحضور حتى جذبتني سعيدة والدته معاذ من يدي... "هي يا بنات جاد ده أخو العريس اقبضوهو للحنة لو ما ختيتوها ليهو أصلو ما تخلوهو يقوم من هنا..." وأفسح لي أصدقاء معاذ المكان بعد أن أصرت والدته على أن أضع الحناء تحت مراقبتها وهي مبتسمة وتراقبني أنا ومعاذ بكل الحب... وارتفعت أصوات الغناء وانطلقت أصوات قوية بالزغاريد والمباركة معلنة قدوم أهل العروس لحضور أول الحنن المقامة لمعاذ... وذهبت والدته لاستقبالهم وامتزجت أصوات الغناء والسلام والتهنئة لتعطي جواً من الفرح بعد انتهاء الحناء.

حجابها... تقدمت نحو برقة ومد صغيري يده نحوها وهو يخبرها بلهفة "ماما... أنا وبابا ماشين نسلم على العروس." داعبت والدته نور يده الممدودة إليها وهي تخاطبني... "نور من يوم ما شافك وهو كل شوية يحكي عنك... أكيد عذبك يوم الحنة..." استدركت نفسي حين وجدتني أدقق فيها بنظراتي... "ما في عذاب نور نواره الحفلة وأجمل حاجة فيها أنا من دخلت هنا كان نفسي يكون موجود..." وقاطع نور حديثنا "بابا أنا عايز أسلم على العروس." قالها بتزمر وهو ينظر إلى والدته كأنه يرجو منها أن تتركنا حتى نذهب إلى حيث يريد. "نور خليك مؤدب وتعال عشان عمو مشغول..." ومدت يدها إلى نور الذي قابلاها بنظرات رافضة ووضع يديه حول عنقي كأنه يحتمي بي... "خليهو معاي... ما وراي حاجة أعملها وح أكون مبسوط لو سبتيهو معاي..." تراجعت والدته نور أمام كلماتي وأمام نظرات نور التي ترجوها أن تتركه معي... "طيب ح أسبيكم أنا قاعدة مع كوثر هناك." ومدت إصبعها لتشير على مكان جلوسها... "ما تخليهو يغيب عن عينك ولو بكا جيبو لي..." أومأت لها برأسي موافقاً وداعبت هي شعر نور بنفس الطريقة التي يداعب بها شعري يبدو أنه ورث عن والدته بعض حركاتها... وتحركت من أمامي ذاهباً تجاه الطاولة التي تجلس فيها بعض النساء ومعهم كوثر التي لوحت لي بالسلام.

انتهى الحفل ونور النائم على كتفي جعل ذلك الإحساس الكامن في داخلي يتزايد... وذهبت به إلى حيث تجلس والدته بجانب كوثر التي حملته وهي تشكرني... "نبارك ليك يوم عرسك يا جاد وندر علي إلا أحنك بي يدي..." كان لأحاسيسها الجياشة مكانها في قلبي فقد حفظت لي أنني أسعدت ابن شقيقها المتوفى... لكنها لم تكن تعلم ما منحتني له نور من سعادة وإحساس بطعم الحياة... "قريب ح تحننني استعدي من أسه..." وابتمت بفرح... "ده اليوم الدايرنو ليك أنا جالاهزة بس أنت أخطب وقول داير أعرس فلانة ونحنا نتم ليك الباقي كلو..." مددت يدي لأمسك بأصابع الصغير النائم... "عروسي ح تعرفيها قريب بس أديني كم يوم نروق من عرس معاذ عشان ح أدوشكم معاي."

غادرت كوثر ووالدته نور ونور الذي خطف قلبي وروحي.

مرت ثلاثة أيام منذ انتهاء عرس معاذ وكان فكري مشغولاً ولاحظت والدتي والخالة سعدية ذلك وبدأن في التغامز... "الولد ده مالو سرحان اليومين دي... يكون شاف ليهو بت عجبتو في العرس..." عندما سمعت والدتي كلمات الخالة سعدية أسعدتها جداً... "ياريبيبيت يا سعدية ده يوم المنى... خليهو يقول داير فلانة... والله أخطبها ليهو الليلة قبل بكرة..." كنت أسمع تغامزهن وأمانيهن بزواجي وكنت أنا أكثر منهن رغبة في الأمر... "شايكم تقطعو فيني من قبيل... ودايرين تعرسو لي... رأيكم شنو أنا موافق أعرس..." انطلقت زغرودة فرح من فم الخالة سعدية عند سماعها لرغبتني في الزواج... "ده يوم المنى يوم أشوفك عريس يا ولدي... لكن دي منو الخلتك تفكر في العرس أكبيد في واحدة عجبتك..." وسألتني والدتي بلهفة... "صحي يا جاد وربي البت الدايرها منو وبقي باقي يومي ده بخطبها ليك."

"أم نور." قلتها وساد الصمت ونظرات الدهشة ارتسمت على ملامح الخالة سعدية تقابلها نظرات التساؤل من ناحية والدتي... "أم نور... ده اسم عروستك؟" أما الخالة سعدية فامتألت عيناها بالدموع... "كان أنت قاصد الفي بالي... بخيت وعديل... يا زين ما اخترت يا ولدي... **هية** ست البنات وما في زيبا..." وردت أمي وصوتها كانت واضحة فيه نبرات الضيق... "فهموني أول البتتكلمو عنها دي منو... ونور ده منو كمان؟" أمي كانت تتوقع أن أجيبها على أسئلتها لكنني لم أكن أعرف لها جواباً غير أنها أم نور قريبة زوجة معاذ وأنها دخلت قلبي الذي لم يخفق لأحد منذ أن سرقتني من مروة قبل سنين... ولاحظت الخالة سعدية حيرتي... "ولدك اختار بت تمااااام ما فيها كلمة وهي من بنات الخرطوم ما من مدني لكن ما قطعت علاقتها بي مدني كلو كلو وأي

حاجة بتحصل بتجي جارية... "كنت أعلم أن هذه الإجابة لم تكن شافية لأمي... "أمي هبة أرملة وعندها ولد صغير اسمو نور وزوجها أخو خالتي كوثر... "لم تتقبل والدتي فكرة ارتباطي بامرأة سبق لها الزواج ورغم مباركة والدته معاذ للأمر إلا أن والدتي لم تتقبل الفكرة وأصررت على رأيها... "لي شنو يا ولدي داير تحرق قلبي عليك الجابر شنو تعرس عزية... من قلة البنات ولا الخلق ما خلق غيرها... السيرة دي ما دايرة أسمعا تاني ولو كننا داير رضاي شيل البت دي من تفكيرك. "كنت أهم بالا اعتراض على كلام والدتي ولكن قاطع حديثنا صوت طرقات على باب منزل أهل معاذ حيث كنا نجلس ونتحدث وهمت الخالة سعدية بالقيام لفتح الباب لكنني سارعت بالقيام بهذه المهمة... وكانت كوثر بالباب تبعتها هبة... صافحتني كوثر بحرارة أما هبة فقد سلمت علي بحياء ووقفت أنا في مكاني وأنا أراهم يتقدمون ناحية والدتي والخالة سعدية... "أها يا سعدية يا أختي ما رقتو شوية... لي يومين أقول أجيك قبل ما أرجع الخرطوم لكن والله البيت بي هناك لي أسه ما راق... "وابتسمت الخالة سعدية وهي تصافح كوثر وهبة وتعمدت عدم ذكر اسم هبة أمام والدتي التي بدا إعجابها بجمال هبة واضحا على عينيها وغمزتها لي... "ما شاء الله يا كوثر بناتكم بنات السرور والله أي واحدة أسمح من الثانية عاد معاذ عرس والله أداها سماحة ونسب. "كانت للكلمات والدتي وقعها الطيب في قلبي فقد أدركت تماما مقصدها... لقد أعجبتها هبة دون أن تدري أنها من كنا نتحدث عنها منذ قليل وكيف لا تعجبها وقد كانت آية من آيات الجمال الهادي الرزين.

ضحكت كوثر... "بناتنا سمحنا بس خلي ولدكم يأشر ويقول داير أصلو ما بنفوتو بناتنا... "والله أنا لو عندي بت كننا خطبت ليها جاد وما بخليها يمرق لي بيت تاني غير بيتنا... "فرحت والدتي ببناء كوثر... "ولدي عالافية منو وراضية عليه وسعيدة البيتقا مرتو."

تركت مجلس النساء وأحاديثهن وذهبت إلى ديوان الرجال واستلقيت على السرير وعاودتني ذكريات الماضي... كيف كنت وماذا أصبحت... ومروءة... رغم أنها كانت السبب في سجنني إلا أنني أدين لها بتوبتي وبعدي عن طريق السوء وعن النصب والاحتيال لولاها ولولا السجن لكنت الآن لا أزال أكل المال الحرام وأستغل الناس وألعب بعقولهم... لكن الحمد لله فقد أغناني بحالته عن حرامه وأصبح لي اسم هنا في مدينة ود مدني وكونت ثروة خلال فترة بسيطة ونجحت في كل ما قمت به من عمل وأصبح لي اسم وسمعة جيدة في السوق وبين الناس... كما أنني تعمدت أن يعرف الناس أنني سجنيت من قبل لكن ظهرت براءتي... فقد خفت أن يظهر الماضي يوما ما ويدمر كل ما بنيته في لحظات.

استغرقتني أفكاري وذكرياتي ولم أنتبه لصوت الخالة سعدية وهي تناديني... "يا جاد... يا جاد... أجي يا بنات أمي الولد ده مشا وين؟"

أسرعت إليها... "أنا هنا يا خالة... شكلي شالنتي نومة وما سمعتك طوالي... ضحكت للخالة سعدية وهي تمسكني من يدي وتوجهنا ناحية المكان الذي تجلس فيه والدتي وتطلعت حولي لأجد المجلس خالياً إلا من والدتي... "الضيوف مشو ولا شنو؟" ابتسمت الخالة سعدية... "أي مشو لكن كدي اقعد اسمع كلام أمك."

وجلست جوار والدتي... "أمي ز علانة ومز علاني لكن ما بعمل حاجة من غير رضاها... "فنظرت إلي والدتي بنظرة تحذيرية "نحننا مش قلنا الكلام ده ننساهو... عليك الله تفتش للعزبات وعينك ما تشوف القمر الكان قاعد معنا... "تطلعت إلى الخالة سعدية بتساؤل واندهاش ولا زالت نظرة المكر تعلق وجهها... وهي تقول... "أمك عجبنا البت الجات مع كوثر وقالت إلا تخطبها ليك... أها يا جاد رأيك شنو؟" لم أستطع منع نفسي من الضحك... وملاحظة نظرات الدهشة التي ارتسمت على وجه والدتي... "أجي يا ولدي جنيت ولا شنو كلامي ده فيهو شي يضحك... البت حلة الدنيا عليها سمحة ورايقة وزينة ساااااي وكلامها ده كلام مقعد وبني فهم أريتك لو

قعدتنا معنا وسمعتنا حديثها... برررري من بنات الزمن ده مطيرات ومجننات... لكن البت دي عجبتني ودخلت قلبي واتمنيبتها تكون مرتك... توقفت عن الضحك وأمسكت كف والدتي وقبلتها... "يعني عجبتك البت يا أمي؟"

"آي يا ولدي عجبتني عجب شديد وإن قلت آي بكرة دي نمشي نخطبها ليك..." نظرت إلى الخالة سعدية التي قالت... "عاد ده زوق أمك وعجبها برأياها أنا لا فتحنا خشمي لا قلت حاجة أها ورينا رأيك..." كنت لا أزال ممسكاً بيد والدتي... "ورأي أمي وافق رأيي ورأيك يا خالة... وبراها اختارت عروسي الأبتها قبيل قبل ما تشوفها..." لم تستوعب والدتي الكلام في البداية... "أنتو بتقولو في شنو؟" وردت عليها الخالة سعدية... "البت العجبتك دي وقلتي دايرها لي ولدك ياها هبة العزبة القبيبييل كلمك عنها وأبييتها وأسه برأياك القلتي عايزها تبقا مرة ولدك... كلام خشمك وقلتي برأياك..." وافقت والدتي أخيراً على هبة وأشكر الصدفة التي جعلتها تحضر في ذلك الوقت لتراها وتعجب بها وتوافق على ارتباطي بها... وتبقي أن أخبر كوثر قبل أن ترجع إلى الخرطوم... وقررت أن أخبر كوثر عن رغبتني في الزواج من هبة... وكانت هذه هي العقبة الثانية فقد كنت خائفاً إلا توافق أن تتزوج أرملة شقيقها مرة أخرى... وماذا لو لم توافق صاحبة الشأن عند هذه النقطة التي وصل إليها تفكيري كدت أن أشعر بالضيق لولا أنني قد تماكنت نفسي وقررت أن أفعل كل ما يمكن لتصبح هبة زوجتي ويصبح نور... نور حياتي.

في المساء ذهبت إلى منزل كوثر التي كانت تقطن قريباً من منزل هناء ابنة أختها التي تزوجها معاذ صديقي... لم أكن أعرف ما الذي سأفعله غير أنني سأخبرها عن رغبتني في الزواج من هبة وأن أطلب مباركتها لهذا الزواج... وبعدها أطلب مقابلة هبة إذا تم الأمر كما أريد.

الجزء ٤

كيف أخبرها لا أدري لكن عزميت أن أفعل وقررت الذهاب إلى منزلهم بعد المغرب وكعادتها استقبلتني كوثر بحرارة واندفع نور ناحيتي مهلاً بفرح... "بابا ج... بابا ج... أنا مشتاق ليك يا بابا..." نور وكلماته التي تجعلني أحس بأنني أسعد إنسان في هذه الدنيا وأنا أرى نظراته المبهجة والفرحة بقدمي... وجعلتني كلمة "مشتاق" أحس بالدمع يترقرق في عيوني... وحملته كما تعودت كل مرة حين ألاقه وأخذ هو يعبث بشعري... "بابا شعرك حلو يا بابا..." وضحكنا على كلماته واحمر وجهه ثم ضحك هو أيضاً... "ادخل يا ولدي لو تابعت نور ما بخلبك تقعد..." وتقدمت الخالة كوثر إلى داخل المضيقة وهي تدعوني للجلوس "اتفضل يا ولدي... كنت بسوي في شاي ومعاها لقيمات دقيقتين أجيب الصينية وتشرب معنا الشاي... حماتك بتحبك..." وغمرت بعينها وهي تبتسم.

"اخلي راحتك يا خالتي وأنا بقعد مع نور لحدي ما تجي."

وجلست ألاعب نور حتى سبقت رائحة اللقيمات الشهية قدوم الخالة كوثر... ونزل نور بسرعة... "جابهو الشاي... جابهو الشاي... عمتو ماما بتحب الشاي أمشي أناديها."

"اقعد هنا يا نور ماما طلعت وأسه بتجي."

كان من حظي الجيد أنها غير موجودة حتى أستطيع أن أفتح الخالة كوثر فيما أتيت من أجله.

"ريحة اللقييمات فتحت نفسي تسلم أيدك."

"إن شاء الله أسويها ليك يوم حنتك يا جاد، أها ما نويت لسه؟"

جاءت الفرصة لأتكلم عما أريد.

"والله نويت بس ربنا يسهل والعروس أهلها يوافقو."

"ما يوافقو مالهم بلقو زيك وين والله أنا لو عندي بت ما كنتا فوتها ليك لكن ولادتي كلها صبيان وكلهم بره البلد زول قاعد معاي منهم ما في... الله يخليها هبة هي الزول الوحيد وولدها الشايلين بي حسي بعد أبو العيال ما مات وأولادي سافرو."

وقدمت لي الخالة كوثر الشاي ومدت إلي طبق اللقييمات الشهي... "اتفضل يا ولدي الشاي ما يبرد عليك..." واحتج نور... "أنا وبنو حقي تدي بابا وتخليني؟"

ونظرت إليه الخالة كوثر محذرة... "روق يا ولد أسه يبرد ليك الشاي عشان ما يحرقك ما تيقا خمجان وملهوف..."

"أنا بقيت راجل كبير بشربو حار زي بابا."

وأصر نور على أن يشرب الشاي وهو ساخن.

"نور أنا زاتي بشرب الشاي بارد عشان ما يحرقني رأيك شنو نخلي الخالة كوثر تبردو لينا ونشرب سوا؟"

سكت نور قليلاً كأنه ينوي الاعتراض على كلامي ولكنه استسلم في نهاية الأمر.

"خلاص تبردو لينا شوية."

"يا ولدي ما تخرب مزاجك بي ورا الشافع ده اشرب شايبك ساي."

لكنني طلبت منها أن أشربه كما يشربه نور، وبدأت كوثر تبرد الشاي وبدأت أنا حديثي.

"عندي طلب ونفسي ما ترديني فيهو يا خالة. وأول شي قلت أكلمك أنتي وأستاذك فيهو."

كانت نظرات كوثر موجهة ناحية الشاي الذي أخذت تصبه من قدح إلى آخر في حركة تبادلية وتزداد معها رغبة الشاي في منظر جميل.

"طلب شنو يا ولدي، قول أنت ما بردو ليك طلب."

"طلبي غالي وعارفو ما هين لكن لو وافقتي عليهو أكون أسعد إنسان."

وتوقفت كوثر عن ما تفعله وهي تنظر إلي باستغراب.

"في شنو يا جاد؟"

"أنا عايز أطلب يد هبة وتبقا زوجتي على سنة الله ورسولو."

وضعت كوثر الأقداح من يدها من المفاجأة وهي تخاطبني بدهشة.

"هبة مرة المرحوم أخوي... هبة بتنا؟"

"أيوه يا خالة هبة أم نور... عارف طلبي غالي لكن أنا من يوم ما شفتا نور وقلبي اتعلق بيهو وحسيت أنو حنة مني وكلمة بابا منو بالدنيا عندي والله لو قبلتو بي أكون أسعد إنسان، وأنا حبيت أكلمك أنتي وأخذ رأيك قبل أم نور ما تعرف حاجة."

تدافعت الدموع من عيون كوثر وسكنت لعدة دقائق وهي تبكي بصمت واحترمت أنا حزنها فربما تكون صورة شقيقها المتوفى قد خطرت ببالها في هذه اللحظات، وعادت كوثر بعد قليل لتضع الشاي في الأقداح ووضعتها أمامي وحملت أنا قطعة اللقيمات وأخذت أطعمها إلى نور ثم تذوقت الشاي لأعرف إذا كان مناسباً لنور كي يشرب منه وحملت إليه كوب الشاي ليرتشف منه قليلاً ونظرات الخالة كوثر تتابعنا بصمت وبعد أن أكمل نور نصيبه من اللقيمات.

"يا عمتو أنتي بتبكي مالك... بابا داير يعرس ماما وح نعمل حفلة كبيرة وبابا ح يجيب لي لعبات وهدوم وبابا ثاني ما بمشي خلينا، ما تبكي يا عمتو لأنو أنا بحب بابا شديد وعايذ نعمل عرس ثاني زي عرس هنوية وبابا يشيلني ونعمل الحفلة ونرقص وأنتي زاتك ترقصي معانا."

ساد الصمت بعد كلمات نور التي لم يتوقعها أحد وابتسمت الخالة كوثر رغم دموعها التي لا زالت تسيل على خديها.

"أها يا ولدي طلبك غاااالي لكن نور أداك وأنا أديتك وأنا ما دايرة شي في الدنيا إلا أشوف نور وأمو مبسوطين، وأنت ما بتعوج عليهم... كفاية ريذة نور ليك دي برااها بالدنيا."

كانت كلمات الخالة كوثر تعني أنها وافقت لكنني كنت أريد أن أسمعها صراحة ليطمئن قلبي.

"يعني موافقة يا خالة أني أخطب هبة؟"

"موافقة يا ولدي ربنا يجعلو أبرك وعديل هبة تستاهل كل خير وأنت كمان... هبة ما فرحت من يوم الحادث المات فيهو طارق وعمتها وراجل عمتها، وإن شاء الله تضوق الفرح والسعادة معاك."

تراقص قلبي فرحاً وأنا أسمع موافقة الخالة كوثر وأخبرتها أنني قد أخبرت والدتي والخالة سعدية وأخبرتها عن رغبة والدتي في أن تصبح هبة زوجتي منذ أن رأتها عندما كنا في منزل معاذ. وطلبت منها أن تخبر هبة بطلبي وأن تشاورها في الأمر واستأذنتها أن أتكلم مع هبة قبل أن تقول رأيها في الموضوع.

"طيب يا ولدي أديني فرصة أفاتها في الموضوع وإن شاء الله خير."

في تلك اللحظة وصلت هبة.

"ماما جات، ماما... بابا قال داير يعرسك."

ولم يترك لنا نور أي مجال فقد رمى الكلام أمام هبة بدون سابق إنذار... وفاجأ الجميع ووضعنا أمام الأمر الواقع، وقرصته كوثر.

"أنا ما قلت ليك ما تلفح الكلام من خشوم الناس الكبار."

لم تتطرق هبة بكلمة وكانت تنتظر إلينا بصمت ثم أسرع لتختفي من أمامنا... ودق قلبي بعنف وخفت ساعتها أن ترفضني هبة فالمفاجأة التي فجرها نور لم تعط الفرصة للتمهيد للأمر وإيصاله بالصورة المناسبة، وأحسست أنني يجب أن أفعل شيء ما وإن لم أدري ما هو في تلك اللحظة.

"تسمحي لي يا خالة أتكلم مع هبة برانا شوية. أحسن تسمع مني ما دام عرفت الموضوع قبل ما تقول أي حاجة."

"خليني أمشي أوريبها أنك عايذ تتكلم معاه."

وذهبت الخالة كوثر إلى الداخل وذهب نور وراءها واختفت قليلاً ثم عادت.

"أمشي ليها يا ولدي جوه هي قاعدة مستنياك لكن هي زاتها عندها كلام اسمعو كويس وبعد كده القرار عندك وعندها إن كان علي أنا موافقة، لكن اسمع كلامها وشاور روحك قبل ما تواصل في الموضوع." رغم كلماتها

الغامضة إلا أنني كنت سعيدًا بموافقتها ومباركتها لارتباطي بهبة وذهبت وراءها إلى حيث تجلس هبة في داخل الغرفة وخرجت الخالة كوثر وهي تحمل نور وتركتنا وحيدتين.

جلست أراقب نظرات هبة التي بدت لي مبهمّة وغامضة وحزينة... كانت عيونها تحمل مشاعر مختلطة أم أنني كنت أتخيل هذا.

"إلي أنا يا جاد ، قدامك بنات الدنيا ديل كلهم لي شنو أنا بالذات؟"

سؤالها مباشر وقوي وكنت خائفًا أن لا أجيب عليه كما ينبغي لذا قررت أن أقول كل ما بقلبي ولها بعد ذلك لها مطلق الحرية أن تختار أن تكون زوجتي أو ترفض طلبي.

"هبة ما عندي إجابة محددة لي أنتي بالذات. بعرف حاجة واحدة أنا في حياتي حببت مرة واحدة وما حسيت أنو قلبي دق لي زول ثاني من زمن إلا ليك أنتي بعد ما كنتا قايل قلبي خلاص مات ونسي الحب ما بقدر أقول حبيتك ولا بقدر أقول الجواي ليك شنو البقدر أقولو أنو لما شفتك حسيت أنو أنتي الزولة العايزة تعيش معاي حياتي تملأها علي بعد الفراغ الأنا كنتا فيهو، ما بعرف أنتي شنو ولا بعرف عنك حاجة غير أنك أم نور وأنك أرملة المرحوم طارق أخو الخالة كوثر لكن ده كلو ما بهمني بتهمني حاجة واحدة أنك تسعديني أنك تكوني في حياتي وأنك تكوني زوجتي وحبيبتتي وصديقتي... ونور لو وافقتي بي أو رفضتني من أول مرة قال لي فيها كلمة بابا بقي ولدي لو اتزوجتك ولا ما حصل بينا نصيب، أنا دايرك أنتي وداير نور يكبر قدام عيني، ده طلبي وأنتي ليك الحق توافقي أو ترفضني."

كانت هبة صامتة وهي تستمع إلى حديثي وسكت أنا بعد أن قلت كل ما أحس به بداخلي وأحسست أن دقائق قلبي تكاد أن تكون مسموعة.

"في حاجات كتيرة أنت ما عارفها عني وتجي تقول داير تعرسني ما حسيت أنك اتسرعتا مفروض أول شي تعرف أنا منو وأهلي منو، ما سألنا نفسك أنا لي شنو قاعدة مع كوثر في ما سألنا نفسك وبين أهلي لي واحدة أرملة ليها سنين وصغيرة ساكنة مع حماتها ما غريبة شوية؟"

"هبة ما في زول مكمل وأنا زاتي فيني كثير وفي حاجات كتيرة لازم تعرفيها عني لكن في كل الأحوال أنا عايزك لأنني متأكد أنو مهما كان قلبي ما ح يخوني ومهما كنتي ما ح يكون فيك حاجة سيئة قدر الفيني الكل يشكر فيك وكفاية علي أنو قلبي افتتح ليك وتاني ما في حاجة بتهمني. لكن أنتي لازم تعرفي عني أي حاجة، اسمعيني كويس وبعدها ليك الحكم."

وبدأت أخبرها عن الماضي، حياتي السابقة وفترة الضياع التي عشتها ومروءة وخداعها لي. وظهورها المفاجئ بعد فترة من الزمن لتبرئني وعن لقائي بمعاذ وأنا في طريقي إلى هنا بعد أن قررت الابتعاد عن كل الماضي وكل ما فيه وعشت حياة مختلفة وفقت فيها كثيرًا إلى يوم أن رأيتها.

كانت صامتة وهي تستمع إلى حديثي وأحسست أنها لم تستغرب ما أقول ولم تعقب عليه كأن ما أحكيه لم يكن جديدًا عليها ولم تكن هذه المرة الأولى التي تسمعه فيها.

"سمعتا حكايتك يا جاد لكن فاضل أنت تسمع حكايتي، أنا والمرحوم طارق عرفنا بعض في ظروف صعبة أمة متوفية وهي كانت الزوجة الثانية لي أبوي وعندو غيري بنتين وولدين كانوا عايشين معاهو في خارج السودان وأنا كنتا عايشة مع عمتي وهي جارة كوثر عشان كده كانت بتعرفني من أنا صغيرة وعلاقتي بي أبوي وأخواني كانت ما بنتعدا فترة الإجازة البجو بعدوها هنا لحدي ما جات أختي الأكبر مني عشان تقرا الجامعة هنا وطبعًا الفرق بينا ما كان كبير سنتين وحصلتها وكنا في نفس الجامعة وفي الفترة دي والذي اتوفى فجأة بعد ما اتزوجت أختنا الثانية الأكبر منا واستقرت في دبي مع زوجها وأخواني الأولاد كانوا لسه صغار وفي المدرسة والمستوى المادي الكانو عايشين فيهو اتدهور شديد لأنهم كانوا بصرفو بي بذخ لأنو دي الحياة الإتعودو عليها، أما أنا فأبوي بي حياتو أداني نصيبي من ورثة أمة وختاها ودبعة في البنك بي اسمي ده غير أنو كتب وصية

بي اسمي غير حقي الشرعي في الورثة عشان يعوضني عن عدم وجودو في حياتي وأن و ما كان بصرف علي زي ما بصرف على أولادو وكتب لي البيت العايشة فيهو مع عمتي لأنو كان ملكو وعمتي كانت متزوجة بس ما عندها أطفال وربتني هي وزوجها الكان في مقام أبوي لكن للأسف اتوفو في حادث العربية المات فيهو طارق وأنا كنتا ما معاهم لأنو نور كان عيان وما قدرت أمشي معاهم الوفاة المشو ليها وعملو الحادث وهم راجعين في الطريق."

الجزء ٥٥

المشكلة أنو ممتلكاتي ما كان لي الحق في التصرف فيها إلا لما أكمل ٢٥ سنة وإلا يسقط حقي فيها وتبقا وقف لي صالح الأعمال الخيرية حسب وصية الوالد.. ونصيبي من أمي يا دوب كان بكفي مصاريفي وما قدرت أساعد أخواني بي حاجة لأنو حتى نصيبي في الورثة راح ساي لأنو ما وزعنا الورثة وبقو عايشين في وضع صعب والحاجة الوحيدة الفضلت لي أخواني البيت الكانو عايشين فيهو والعربية حقت أبوي.

كانت هبة تحكي وأحسست بغصة في حلقي عندما سمعت عن سيارة والدها... وذلك الإحساس الذي راودني عندما كنت أحكي ليها عن الماضي بأنها كانت تسمع حكاية لم تكن بالغربية عنها.. كأنها ما كانت بتسمعها لأول مرة هل يمكن أن تكون لها صلة بما حدث في الماضي.

وقاطعتها في تلك اللحظة فقد أصبح ما يسيطر علي ساعتها أكبر من قدرتي على الاحتمال.

"هبة أنتي بتعرفيني قبل كده قبل ما نتلاقا في عرس معاذ؟"

أومات هبة برأسها إيجابًا، لكنني لم أكن أطبق ما سيأتي بعدها فربما كان أصعب مما أستطيع احتماله.

"أيوه بعرفك من زمان."

سألتها وأنا أتمنى ألا تكون إجابتها كما كنت أتوقع.

"مروة؟"

"اسمها **مايا** مروة هو الاسم الكان بناديه بيهو أبوي."

سكتت... ولم أستطع أنا أن أقول شيئًا وساد الصمت... صمت ثقيل قاتل لحظات كالجمر... مروة... لازلتي هي المحرك الأساسي لكل الأحداث في حياتي لازلتي تلعب بها حتى وهي خارجها.. هل يعقل أن تجعلني الأقدار أحب أختها؟

"جاد مايا ما كانت بتعرف في حياتها غير القروش وغير أنها جميلة لكن لما عرفتك بدت تميل ليك لكن ده كلو ما خلاها تغير خططها في إنها تستغل كل الحولها عشان تلقى القروش البتعيش بيهو هي وأسرتها زي ما اتعودو، ورجعت تعيش مع أسرتها لما جو استقرو في السودان بعد وفاة الوالد وتدهور أوضاعهم المالية في الغربية، ولما بدت مايا تمشي في سكة غلط عمتي لاحظت لي سلوكها وبدت تجيبها شكاوي من نسوان الحي الساكنين فيهو والكنت بتعرفهم من خلال الفترة العاشتها معانا أنو مايا بتستغل أولادهم ماديا ووصل الموضوع أنها وهمت راجل متزوج أنها ح تنزجو وأخذت منو مبالغ مالية كبيرة وجات زوجتو وعملت مشكلة لما عرفت بالصدفة عن علاقتو بي مايا لما لقت رسايلها في تلفونو وسمعتو وهو بتكلم معاها وبواعدها، وهنا عمتي خلاص فاض

بيها لأنو مايا بقت ما بتسمع كلام زول وبتسوي الفي راسها وبس ومنعتها عمتي أنها تجينا ومنعتني من زيارتهم، وطبعًا مايا واصلت في الطريق الهي ماشة فيها وساعدها أنو شكلها أكبر من سنها وجمالها ودلالها كان بيعمي أغلب ضحاياها.. والوقت داك ما كانت وصلت لي سن الرشد عشان كده كانت معتمدة أنها ما ح تتحاسب حسب فهمها واتقطعت علاقتي بيه وفي الفترة دي عرفنا طارق... كان أكبر مني بي ١٥ سنة بس كنت معجبة بيهو وببي شخصيتو وكان ضابط في البوليس."

"لحدي ما جا يوم واتصلت علي مايا وطلبت أنها تشوفني ضروري وكان صوتها منهار شديد وما كنتا عارفة أمشي ألافها كيف بدون ما عمتي تعرف.. وكلمتا طارق وطلبتا منو يساعدي وهو كان عارف كل الحاصل بي حكم أنو قعد فترة مع كوثر في البيت في الفترة السافرو فيها أولادها وبقي ما معاها زول وهو انتقل للعمل هنا في الخرطوم بالذات في أيام مشاكل مايا، طارق وصلني ليها ولقيتها تبكي وكانت معاها واحدة صاحبته وعرفنا منها أنو عندهم صديقة تالته كانوا ماشين في نفس السكة وصاحبتهم الراجل حاولت تخدعو ضربها وبعد فترة اتوفت نتيجة الضرب ده، ويبدو أنو دي الحاجة الخلتها تخاف وترجع من الشي الكانت بتعمل فيهو غير أنها كانت عايشة مطاردة بي سبب القضية بتاعتك... وأمها كمان اتزوجت واحد من أهلها ورفض أنو مايا تقعد معاهم بعد عرف عمائلها دي واتقفلت عليها من كل السكك... أنا ما كنت عارفة أعمل ليها شنو ولو جبتها بيت عمتي ممكن أسبب ليها مشكلة لأنها مطلوبة في القضية بتاعتك والحل الوحيد كان أنها تسلم نفسها ونعتمد على أساس أنها لسه قاصر وكان فاضل ليها ستة شهور وتكمل سن الرشد، وطارق ساعدنا أنها تسلم نفسها وقوم ليها محامي يساعدها في قضيتها... وطبعًا سيرتك كانت بتجي كثير على لسانها لأنها كانت بتقول ده حقك عليها الواقعة في كل الورطات دي.. ويوم ما جات سلمت نفسها وجابوك أنت عشان يقارنو أقوالك بي أقوالها أنا كنت موجودة وشفتك ساعتها... بس ما كنتا قايلة الزمن ح يلف ويدور وتاني ح نتلاقا وتطلبني للزواج، قدر عجيب صحي الواحد فينا ما بعرف القدر مخبي ليهو شنو."

كنت أستمع إليها كأنني في حلم... مروة أو مايا هي أخت هبة الماضي والحاضر اجتماعًا في هذه اللحظة... كانت تلك اللحظة بالنسبة لي كأنها **حكم مؤبد** بأن أبقى معلقًا بين الماضي والحاضر وأن تضيق كل أحلامي وكل ما بنيته في لحظات.

"مروة وين أسه؟"

جاء سؤالي بصوت يرتجف لم أكن أستطيع التحكم فيه ولم أكن أدري هل سؤالي عنها هو اعتراف بأنها لا زالت حبي الوحيد فقد اختلطت كل الأمور في رأسي أم هو نقطة لإنهاء ما كان معلقًا في الماضي والخروج أخيرًا من دائرة مروة.

أخذت هبة نفسًا طويلاً وهي تشيح بوجهها كأنها كانت تتمنى أن أقول شيئًا آخر غير ما قلت، ثم أطرقت بوجهها ناحية الأرض.

"مايا قضت فترة مخففة في السجن وبعدها أختنا **مي** العايشة بره السودان رسلت ليها عشان تمشي تعيش معاها هي وزوجها وكان زول متفهم وقبل أنها تعيش وسطهم بالذات أنو مايا اتغيرت كثير في الفترة دي. وبقت زولة تانية وربنا أكرمها بي زول حباها. واتزوجت **أكرم** صديق زوج مي من سنتين وعندها منو ولد."

لم أكن أدري بماذا أحس في تلك اللحظات ولكن كنت أريد شيئًا واحدًا فقط... أن أذهب بعيدًا وأن أملاً صدري بهواء نقي هواء لا يحمل أنفاس مروة ولا ذكرياتها التي تخنقني.

"هبة ح أطلب منك طلب واحد."

"عايز شنو يا جاد، أظن خلاص ما فضل بينا كلام بعد العرفو ده."

نور كان هو نقطة التوازن التي أعادت إلي روحي ورغيتي في الحياة... أحسست أنني أخيرًا أتنفس أنني حي. فرحتي بسماع صوته وكلماته جعلتني أعلم جيدًا أن البعد عنه وعن هبة أفسى من الماضي وأن الحكم المؤبد هو ما أنا فيه الآن بعيدًا عن من أحبهم.

"نور ماما جمبك؟"

"أيوه يا بابا ماما قاعدة معاي."

"أديني ليها يا نور أكلمها."

وارتفع صوت نور وهو ينادي على والدته صارخًا... "ماما.. ماما بابا عايز يكلمك."

لحظات من الانتظار وسمعت صوت أنفاسها المتسارعة التي سبقت صوتها.

"جاد."

وأسكتها قبل أن تقول أي شيء آخر.

"يا روح جاد... أنا جاي... كفاية فراق عشان ماضي انتهى... أنتي الحاضر وأنتي المستقبل وكفاية سجن أكثر من كده أنا جاي يا حبيبتي."

وسمعتها تقول بصوتها العذب أجمل كلمات.

"وأنا على وعدي ليك يا حبيبتي أنا ونور منتظرين رجوعك لينا."

الخاتمة

الفرحة ورائحة الصندل والبخور وأصوات الزغاريد والخالة سعدية التي تقوم بطقوس الجرتق ومعاذ الذي يقف بجوار زوجته فرحًا وهو في انتظار قدوم طفلها الأول، وشقيقتي التي تنظر إلي بسعادة وهي إلى جوار خطيبها والدتي التي تجلس بقربي وهي تراقب طقوس الجرتق والخالة كوثر التي يرتفع صوتها بالعدل والزين وشقيقات هبة مايا ومي اللاتي حضرن خصيصًا لحضور زواجنا ونور الذي أصر أن يرتدي مثلي جلباب أبيض تزيينه الخطوط الحمراء والذهبية وهو يجلس في حجري ويصر أن تربط له الخالة سعدية الهلال على جبينه.. كما فعلت معي... وهبة عروسي الجميلة التي يستكين كفها الصغير على كفي... وأنا وتلك الفرحة التي تغمرني وأحس معها أنني قد ملكت العالم... ومايا تبتسم لنا بسعادة وهي تطلق الزغاريد معلنة فرحتها التي اكتملت الآن... وأخيرًا استطعت أنا أن أتنفس وأن أعود إليك يا دنيا.

النهاية

شكراً لقراءتك

تابع الفصول الجديدة وروايات أخرى، واقرأ وتابع الكاتب على موقعنا

sudanesenovels.com